2 – أدبيّاتِ الخطابُ الفنيّ

كِتابُ السَّراياتِ للأستاذ الفنان عيسى هجرس نموذجا

The Literature of Artistic Discourse: The Book *"Al-Sarayat"* by the Artist Issa Hajras as a Model

بقلم الدكتورة: رفيقة بن رجب

استاذ مشارك في النقد والبلاغة/ الجامعة الأهلية / مملكة البحرين

reefbinrajab@yahoo.com

By Dr. Rafika Ben Rajab

Associate Professor of Criticism and Rhetoric, Ahlia University, Kingdom of Bahrain

ملخص البحث باللغة العربية

إنَّ التنوُّعَ في فهمِ الجمالِ بكلِّ صِيَغِه، يُؤكِّدُ على خارطةِ الفكرِ اللغويِّ، والفنيِّ، والجماليِّ، المتغلغِلِ في ثنايا القراءاتِ المُستفيضةِ للسراياتِ لهذا المُبدِعِ، الذي يُفاجئُنا بثقلِه الأدبيِّ والثقافيِّ حولَ جَدليّةِ الجمالِ بكل تناقضاتها وتحدياتها .

وقد جاءَ الكاتبُ ليقدِّمَ أنموذجًا فاعلًا حولَ أنواعِ الجمالِ، ويُثبِتَ للعالمِ بأنَّ حركةَ هذا الفنِّ باتتْ مُؤطّرةً بأُطُرٍ مُمنهجةٍ، تعملُ تحتَ نمطِ التحليلِ الفنّيِّ الجماليِّ، والمتعلِّقِ بعملية التلقي وبدلالات وظيفيّةٍ، ربطُت بين الأنواعِ ربطًا تصويريًّا، فيه معالجةٌ فنّيّةٌ

خاصّةٌ بشخصيّةِ الكاتبِ أوّلًا، وكأنّه يُؤسِّسُ لموضوعٍ جديدٍ له خصوصيّتُه، يُعالِجُ بها القضايا بنَفَسٍ جديدٍ، وتقنيات ذكيّة. ولن يكونَ هذا الوعي بمثل هذه القضايا فاعلًا إلّا بالقفزِ على الحواجزِ المألوفةِ إلى اللامألوفِة؛ بتخطّي كلِّ المستحيلات إلى الممكنات.

Abstract:

"The diversity in the perception of beauty in all its forms affirms the intricate map of linguistic, artistic, and aesthetic thought, deeply embedded in the nuanced and extensive readings of this creator's work. He continually surprises us with the weight of his literary and cultural presence, particularly in relation to the dialectic of beauty—with all its paradoxes and challenges. In this context, the writer offers a dynamic model that explores the various manifestations of beauty, asserting that the movement of this art has become framed within methodical and structured approaches. These operate through an aesthetic and critical lens, rooted in the act of reception and functional symbolism, linking the different forms of beauty through a visual and interpretive framework. This is handled with a distinct artistic sensibility that reflects the writer's unique personality. It is as though he is laying the groundwork for a new discourse with its own specificity, tackling issues with a fresh perspective and intelligent techniques. Such an awareness, however, can only be truly impactful by transcending the familiar and venturing into the unfamiliar moving beyond perceived impossibilities toward the realm of what is possible."

المقدمة:

«السَّراياتُ ليسَ كتابًا تقليديًّا، بل هو حصيلةُ تجربةِ حياةٍ طويلةٍ بدأتْ منذ عامِ 1995. ولم يُكتَبْ بهدفِ النشرِ المباشر، وإنّما نضجَ على مهلٍ عبرَ ثلاثةِ عقودٍ من التأمُّلِ، والكتاب هو «نُزهةٌ تأمُّليّةٌ في حديقةٍ غيرِ مُرتَّبةٍ، ممّا يعكسُ طابَعَهُ العفويَّ.

إنَّ السرايات كانتْ لي سَفَرًا في عُقودِ السنين، بحثًا عن خَبيئةِ الحِكمة، وهَروَلةِ المُغامِرِ اللاَّهثِ وراءَ شَرائِقِ الحَريرِ»[1].

بعد قراءتي المتأنية والمستفيضة والمتواضعة لهذا الكتاب أقول : هو ظِلُّ الانفتاحِ الفكريِّ والحضاريِّ، الذي ساهمَ

من خلالِهِ المؤلفُ في تلكَ المقدّمةِ اللافتةِ إلى تشكيلِ البنيةِ التصاعديّةِ للنسيجِ المجتمعيِّ، الذي نعدُّهُ – نحنُ القُرّاءَ والنقّادَ والمتلقّينَ – من المؤثّراتِ المعرفيّةِ العاليةِ المستوى، خاصّةً في انتقائِهِ لتلكَ المفرداتِ العجائبيّةِ، والمُشتملةِ على فُحولةِ القلمِ، وخصوبةِ الكلمةِ، وولادةِ العبارةِ، وتجويفِ الوجدانِ.

ما أغربَها من عباراتٍ تدلُّ على عُمقِ فِكرِ الكاتبِ، وانخراطِهِ باحترافيّةٍ في جَوهَرِ الأصالةِ وحداثيّاتِ العَراقة؛ لتحقيقِ جماليّاتٍ مرسومةٍ في عُمقِ الذاكرةِ، وصميم الإحساس في نطاقِ النصِّ المكتوبِ بإتقانٍ شديد، دون السقوطِ في حبائلِ اللغةِ المسطّحة، حيث إنّ تلك السراياتِ محبوكةٌ بشكلٍ فنّي، وجماليّ، وموضوعيّ، وأدبيّ. تجمع بين دفتيها الحكم والمنطق والشعر إلى جوار التخييل والمعرفة «تتداخل علوم البلاغة عامة والبيان مع الشعر وتياراته المتشعبة انطلاقا من البلاغة القديمة حيث يقع البيان عند السكاكي في منطقة ما بين الشعر والمنطق بين وظيفة التخيل ووظيفة المعرفة والاستدلال»[2] .

مداراتٌ، وتصوراتٌ، متباينةُ المذاقاتِ، تهدف للوصولِ إلى أسلوبٍ تتناغم فيه المعطياتِ، في سِمتٍ مُؤطَّرٍ بجميعِ التقنياتِ الفنّيّة.

العرض

لقد جاء هذا الكتابُ ليتابعَ مسيرةً إبداعية، لها أبعادُها الأدبيّةُ، والفنّيّةُ، والجماليّةُ، مارسها المؤلف على جميع المستويات من منابع ثقافيه متعددة فضلًا عن كونِها تُلبّي طموحًا عاليَ المستوى، وليس مجرّدَ سردِ مجموعةٍ من السراياتِ؛ لكي تُضيفَ رقمًا إضافيًّا. يرى رولان بارت إن النص نسيج من الاقتباسات تنحدر من منابع ثقافيه متعددة ويرى ان النص يتألف من كتابات متعددة تتحاور وتتحاكى وتتعارض[3] .

هو مشروعٌ ناجحٌ بكلِّ المقاييس، ينوي الوصولَ إلى مستوى التواصلِ مع الألفيّةِ الجديدةِ، التي ما عادت جهودًا ذاتيّةً خاصّةً بالكاتبِ، بل هي هيئةٌ تتطلّعُ إلى جهودٍ مؤسّساتيّةٍ جماعيّةٍ، تتناول قضايا

1- عيسى هجرس–السرايات – الطبعة الأولى 2022– – فراديس للنشر والتوزيع ص5

2- محمد العمري البلاغة العربية اصولها وامتداداتها– من منشورات افريقيا الشرق–بيروت –لبنان– 1999 ص 43 وص 68

3- أيمن إبراهيم معروف–إشراف يمنى العيد – النقد الأدبي في البلاغة العربية الى المناهج الحديثة –من منشورات الشارقة ص12

تتصل باللغة والفكر والفصاحة وبأشكال القول الأخرى والتي تعملُ بروحِ الفريقِ الواحدِ، الذي يضعُ أمامَه عدّةَ معاييرَ، لا بدَّ له من استيفائِها.«وإذا كان قد قيل بأن البلاغة هي علم أسلوب الأقدمين فمن الملاحظ أن حظها من العلم كان يوازي بل يفوق في بعض الأحيان تصورات العلوم الأخرى، فكثير من تحليلات التراث البلاغي المتصلة بمضمون التعبير تضاهي المنطقة التي يغطيها علم اللغة الحديث من قضايا تتصل باللغة والفكر والفصاحة وبأشكال القول وتكوينه مما يشمل جوانبه الثلاثة:الصوتية والمعجمية والنحوية»[1] .

ولِكَي يتمَّ تفعيلُ هذا الفنِّ بنجاحٍ، لنا أن نعترفَ بأنّ ذلك يتطلّبُ مهارةً ذهنيّةً، ذاتَ مصداقيّةٍ، ورمزيّةٍ ثابتةٍ، فهي –على حدِّ قولِ الكاتبِ–: «عواصفُ الموسمِ المُعلّقةُ بذيلِ الشتاءِ»[2] العبارةُ اشتملتْ على استعارةٍ غيرِ متآكلةِ المجاز البتة، بل هي مبتكرة.

والاستعارة المتعلّقةُ بذيلِ الشتاءِ، شكّلتْ انعكاسًا منتظمًا في نسقٍ استراتيجيٍّ جماليٍّ، خلقَ تمازجًا بين الصورةِ المجازية، وبين التعبيرِ المقصودِ والمسكوتِ عنه، في لغةٍ جديدةٍ، ارتسمتْ في تلك الإيقاعاتِ الرنّانة.

ومع تتبُّعِنا للحديثِ عن السرياتِ، سوف تُدهشنا تلك المضامينُ التي عبّرتْ عن معاني الذاتِ، عبر التصويرِ، والرمزِ، والمجازِ، بحثًا عن «معنى المعنى» على حدِّ كلامِ شيخِ البلاغيّين عبد القاهر الجرجاني، عندما يُشيرُ في كتبِه إلى قضيّةِ معنى المعنى وليس المعنى فقط؛ إنّ فكرة «معنى المعنى» عند عبد القاهر– بهذا التصور–تؤسس على صعيد نظام العلامات اللغوية لنهج سيميائي في تقدير المدلول اللغوي للتركيب، ولذلك اخترنا هذه المقاربة السيميائية من أجل الكشف عن وجوه دلالات التراكيب على «معنى المعنى»، عندما ترتقي اللّغة –على صعيد النظم والتأليف–من التعبير عن المعنى المباشر إلى مستوى أداء الأغراض التي تُوجبها مقاصدُ المُخاطِبين وأحوالُ المتلقين. الكلمات المفتاحية: المعنى–الثاني –عبد القاهر–الدلالة – السيميائية.[3]

حتى لا تنفلتَ من أيدينا زمامُ الأمور، وتضيع في خِضَمِّه الحقيقةُ المجرّدةُ، البعيدةُ عن المفاهيمِ، والأنساقِ، والأيديولوجيّات، وجماليّات الصورة، مع البعدِ عن مساحيقِ

1– فضل،صلاح –علم الأسلوب مبادئه واجراءاته – دار البلاد للطباعة والنشر –جدة–الطبعة الثالثة –1988–ص167

2– عيسى هجرس–السرايات – الطبعة الأولى 2022– – فراديس للنشر والتوزيع

3– هاشمي الطاهر معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني–مقاربة سيميائية– مجلة السوسيولسانيات وتحليل الخطاب. –30–12–2022 ,Volume 8 Numara 1, Pages 24–43

التجميلِ ما أمكن. يتحدث ابن الأثير عن المجاز ويقول:» العرب تستعمله لأنه يدل على الفصاحة والبلاغة وهو في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعا في القلوب والأسماء وما عدا الحقيقة من جميع الألفاظ ثم لم يكن محال محضا وهو مجاز لاحتماله وجوه التأويل على إن ما يحكم الصور عنده هو التقاطها في حاله الحركة [1].

وتلك السرايا‌تُ التي اجتهدَ فيها المؤلّفُ هجرس لعرضِ المضامينِ بصورٍ متعدّدةٍ، ومسترسلة تضامن فيها الركن الوظيفي لديه مع وظيفة اللغة حيث جعل المتلقّي الواعي قادرًا على اقتحامِ جدليّةِ ذاك الصراعِ المتجذّرِ في عمقِ تلك السرايا‌تِ المتعدّدةِ الرؤى، لأنّه بحاجةٍ إلى وعيٍ يمسُّ كلَّ الدلالاتِ المطروحة. «النص المنجز يحدث جماليته من خلال أثره المحرك وقوته الانفعالية». ويقول أيضا: «الركن الوظيفي المتناهي مع وظيفة اللغة وقوة المجاز والمخيال الغرائبي كلها هواجس تدور حول النص بحركة الشعرية التي تباغتنا بهذا النفس الطويل والتحدي الممتد والتقاطعات الدلالية» [2] .

وسوف نختار بعضًا منها لكي نتناولَها بشيءٍ من التحليلِ والدراسة:

السرايا‌ت المختارة: سراية رقم (8)

من صنعَ المصباحَ اصطادَ البرقَ، ووضعَه في زجاجة، وأسيادُ الحضارةِ اصطادَهم الجهلُ والجدلُ العقيم، وظلّوا مع البيضةِ قبل أمِّ الدجاجة[3] .

الكاتبُ يبحثُ هنا عن علاقةِ التنسيقِ بين الصورتين؛ أي بين مَن صنعَ المصباحَ ومن صنعَ الحضارة، ترى ما العلاقةُ التي تربطُ بين هاتين الصورتين؟

هل قصد الانزياحُ «يرى ريفارتير أن الانزياح» يكون خرقًا للقواعد حينًا، ولجوءًا إلى ما ندر حينًا آخر، فأما في حالته الأولى، فهو من مشمولات علم البلاغة، فيقتضي إذًا تقييمًا بالاعتماد على أحكامٍ معيارية، وأما في صورته الثانية، فالبحث فيه من مقتضيات اللسانيات عامة، والأسلوبية خاصة[4] أم هو التوسّعُ في مساحاتِ الرؤية أم هو اختلاف الأساليب؟ أم أننا نتريث حتى لا نُغلقَ على أنفسِنا الغوصَ في صناعةِ الكلام، الذي أفاضَ فيه البلاغيُّ الناقدُ «العسكري» في كتابه الصناعتين؟«إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك،وتنوق له كرائم اللفظ،

1- عبده بدوي -دراسات في النص الأدبي-عصر الإسلام وبني أمية -- من منشورات ذات السلاسل- الكويت -الطبعة الأولى- -1987ص341

2- عبد الله الغذامي-ثقافة الاسئلة، مقالات في النقد والنظرية-كتاب النادي الادبي الثقافي،الطبعة الاولى 1992 ص43

3- عيسى هجرس-السرايات - الطبعة الأولى 2022- - فراديس للنشر والتوزيع ص 8

4- عبدالسلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ط3، 103

واجعلها على ذكر منك؛ ليقرب عليك تناولها ولا يتعبك تطلبها واعمله ما دمت في شباب نشاطك[1].

أم أن الغرضَ من هذه السرايةِ هو التخلّصُ من الجدلِ العقيمِ، الذي لا طائلَ من ورائه، وما هذا إلّا دلالةٌ على الجهلِ؟

«اختلاف الأساليب ليس أمرا عبثيا وإنما هو أمر لازم، لا أقول لاختلاف المعنى كما قال القدماء وإنما أقول لاختلاف هيئة المشاعر بالمعنى ولا جدال إن هذه الفوارق الدقيقة في هيئات المعاني كلما دقت في النفوس كانت شاهد حضارة وعلامة رقي لان البدائي لا يعرف من اللون إلا فاقعه ثم لا تلبث الأذواق كلما صعدت في مدارج التقدم والحضارة أن تميز بين درجات اللون الواحد[2] .

السراية رقم (19):

«مترجمُ الشعرِ يستطيعُ ترجمةَ الكلماتِ، ويصعبُ عليه نقلُ المشاعرِ، كمن يرسمُ الوردَ، لا يستطيعُ أن يرسمَ الرحيقَ[3] .

شدّني ذاك التناغمُ المبنيُّ على واقعِ المشهدِ الأدبيّ، الذي يقولُ فيه الكاتب:

إنّ مترجمَ الشعرِ يستطيعُ ترجمةَ الكلماتِ، ويصعبُ عليه نقلُ المشاعرِ، كمن يرسمُ الوردَ، لا يستطيعُ أن يرسمَ الرحيقَ، وهنا تكمن جماليات اللغة في ذاك التناغم بين الصور والتداخل الذ لايفسد الكلام « يقول السكاكي في صدر الحديث عن تداخل هذه العلوم البلاغية مع جمالية اللغة: «وإذا تقرر أن البلاغة بمرجعيتها وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسن فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها القصد لتحسين الكلام وهي قسمان :قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ[4] .

هذه السّرايةُ ذكّرتني بمقالٍ ذكرتُ فيه رأيي في المترجمِ، في أحد مقالاتي وهو الذي لا يستطيعُ نقلَ المشاعرِ لقرّائه كما ينبغي، وهو ذاته الذي أشارَ إليه كاتبُنا المثقّف.

ذكرتُ فيه أنّ المترجمَ ليس ناقلًا للعلومِ فقط، بل هو مؤسِّسٌ لعوالمَ جديدةٍ؛ تعني «المثاقفة» في ثوبٍ جديدٍ أنيق، يدعمُ المعالمَ الإبداعيّةَ، والطاقاتِ الدلاليّةَ، والمركزيّةَ الخاصّةَ بالمترجم، مصحوبةً بذائقتِه الجماليّة، والفكريّة. كما تُضيفُ للكلامِ بُعدًا بَراجماتيًّا مُنعشًا، واضعًا في اعتبارِه محاورَ عدّة، لا بدّ له من تطبيقِها، والتأطيرِ لها أثناء عمليّةِ النقل، والتي من

1- أبو هلال العسكري -كتاب الصناعتين الكتابة والشعر- ضبط :مفيد قميحة -دار الكتب العلمية - لبنان -الطبعة الثانية - ص151 1989-

2- المرزوقي - حلمي -لنقد والدراسة الأدبية - -الطبعة الأولى-1983- دار النهضة العربية للطباعة والنشر -بيروت -لبنان ص 114 وص 140

3- السابق ص10.

4- أبو يعقوب السكاكي -مفتاح العلوم -- تعليق نعيم زرزور- دار الكتب العلمية -بيروت- لبنان- الطبعة الأولى 1983- ص 423

أهمّها الإحاطةُ الكافيةُ باللغتين، منوطةً بالجانبِ الأكاديميّ المنهجيّ، واعيًا لدقائقِ الأمور، مطّلعًا على المعالجةِ الفنّيّةِ لمقاييسِ الترجمةِ على أصولِها.

ولا يكونُ هذا، بالطبع، إلّا إذا كان المترجمُ ملمًّا بحصادِ التجاربِ الطويلة، مصحوبةً بذهنٍ مُنتج، وعقليّةٍ متوازنة، مستوعبًا للمنجزِ الحضاريِّ، الذي يُثري آليّاتِ النصِّ المترجَم؛ ليُؤسّسَ لعوالمَ فكريّةٍ، ذاتِ رؤيا مركزيّة، ديناميكيّة، تكتسبُ شرعيّتَها، ووجودَها من تلك الجهودِ المبذولةِ منه شخصيًّا، فهو –أعني المترجم –قد جاءَ ليُؤكّدَ على توثيقِ المقولاتِ بأسلوبٍ أنيقٍ وهادف، مُراعِيًا اختلافَ مستوى المتلقّين من ناحية، وتغييرَ مستوى التقنياتِ الحجاجيّةِ الفاعلةِ في الخطابِ المترجمِ من ناحيةٍ أخرى.

ومن أجملِ المفارقاتِ لديه تلك التي تمازجُ بين مهنتين: مهنةِ المترجمِ، ومهنةِ الرسّامِ. فيا ترى، وبعد توضيحِ ماهيّةِ المهنتين، هل حقّق المؤلّفُ التكاملَ بينهما بشكلٍ خفيٍّ غيرِ مرئيّ؟ أم أنّه أرادَ بتلك المفارقةِ أن يُوضّحَ ما قرأه لدى الآخرين، بغيةَ التفوّقِ والتفرّدِ، ليكونَ كلامُه دائمَ البريقِ والتوهّج وهذا ليس من باب الغرور وطالما وجدنا مثل هذه الصفة لدى نقادنا القدامى وأبرزهم ابن الأثير الذي كان يرغب أن يكون متفردا دوما في كتاباته .

والأروع ذاك التشبيه التصويري بين المترجم والرّسام: فكلاهما ليس لديه التركيز ولا الاهتمام بالمشاعر والأحاسيس رغم مهارتهما الفنية. « واعلم أن للتشبيه موقعا حسنا في البلاغة؛ وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي، وإدنائه البعيد من القريب، يزيد المعاني رفعة ووضوحًا، ويكسبها توكيدا وفضلًا، ويكسوها شرفًا ونُبلًا؛ فهو فن واسع النطاق، فسيح الخطو، ممتد الحواشي، متشعَّب الأطراف، متوعِّر المسلك، غامض المدرك، دقيق المجرى، غزير الجدوى.[1]

سراية رقم 271:

«أُحِبُّ أن أكونَ نَغَمًا في نشيدِ بلادي، وحرفًا في اسمِ وَطني، وفي أرضِه حبّةَ غُبارٍ، وفي هوائِه خيطَ نَسيمٍ يجري إلى آخرِ نَفَسٍ[2].

كاتبٌ ثريٌّ بألفاظِه، ومعانيهِ، وحِكَمِه، وكلُّها تقنياتٌ محبوكةٌ، وعباراتٌ أحاطتْ بسياجِ المعنى، وكَسرتْ من خلالهِ حاجزَ اللفظِ السطحيِّ إلى المعنى العميقِ، الذي يليقُ بالوطنِ.

1– أحمد الهاشمي –جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع –ضبط يوسف الصميلي –المكتبة العصرية – بيروت–
2– السابق ص 76

فكَم هو جميلٌ أن نعيشَ نغَمًا في نشيدِ بلادِنا، وكَم هي مشاعرُ وأحاسيسُ مُخَضَّلَةٌ تُثيرُ الدروبَ المُظلِمَةَ، وكأنّها قد خُطَّتْ بريشةِ فنّانٍ مُتَيَّمٍ بحبِّ هذا الوطنِ، بشكلٍ لا يُشبهُ أيَّ حبٍّ في هذا العالمِ. وللعلمِ، فالكاتبُ الأديبُ الذي نتحدثُ عنه، فنّانٌ ومُبدِعٌ أيضًا بكلِّ المقاييس، وطالما تغنّى بالوطنِ بكلِّ حبٍّ وشفافيّةٍ في مناسبات وطنية عدّة.

حبُّ الوطنِ يعني اختزالَ المواقفِ الفكريّةِ، والوِجدانيّةِ، والشعوريّةِ، بصورةٍ مُتناغِمةٍ ومُتجانِسةٍ، حتى يبدو لنا أننا مع هذا الوطنِ سنُصبحُ كيانًا واحدًا، عبرَ منظومةٍ تتقاطعُ أمامَها كلُّ التجاربِ النسقيّةِ، التي تستوعبُ العديدَ من الأبنيةِ المُقنَّنةِ لاستقطابِ الخطابِ المفتوحِ؛ هو خطابُ العِشقِ الوطنيِّ.

عباراتٌ تحفيزيّةٌ، يستكمِلُ بها الجهازُ المعرفيُّ القائمُ على المنظورِ الوطنيِّ بامتيازٍ، مما يفتحُ أمامَنا أبعادًا واستراتيجياتٍ، تستوعبُ أكثرَ المشاعرِ والأحاسيسِ المُقنَّنَةِ، التي ترنو إلى الوصولِ لمنظومةِ عشقٍ من نوعٍ خاصٍّ جدًّا.

سراية رقم 279:

«رأيتُ جمالًا جرَّ رِقابَ الرجالِ، وجعلَ الميزانَ ينسى الاعتدالَ، ورأيتُ جمالًا حوَّلَ العمارةَ أطلالا، ورأيتُ جمالًا رصفَ الطريقَ له مالٌ، ورأيتُ جمالًا في الصليبِ والهلالِ، وجمالًا إيمانُه شكٌّ وأكيدُه احتمالٌ، ورأيتُ جمالًا؛ كلما كشفَ سِرًّا ظلَّ لغزَ سؤالٍ[1] .

نجدُ هنا اختلافَ درجاتِ الجمالِ والأنساقِ، التي رتّبها لنا الكاتبُ، فقد تحدّث بصيغةِ التعدديّةِ، وفضاءاتِها اللامحدودة، حولَ مصطلحِ الجمالِ، وساهمَ في رُقيِّ الفكرِ، ونُضجِ المعرفةِ، وبلورةِ الجهازِ الذاتيِّ، الذي يُعَدُّ من أكبرِ الثقافاتِ وأعلاها شأنًا.

ولا شكَّ أنَّ التنوُّعَ في فهمِ الجمالِ بكلِّ صِيَغِه، يُؤكِّدُ على خارطةِ الفكرِ اللغويِّ، والفنيِّ، والجماليِّ، المتغلغِلِ في ثنايا القراءاتِ المُستفيضةِ للسراياتِ لهذا المُبدِعِ، الذي يُفاجئُنا بثقلِه الأدبيِّ والثقافيِّ حولَ جَدليّةِ الجمالِ بكل تناقضاتها وتحدياتها .

وقد جاءَ الكاتبُ ليقدِّمَ أنموذجًا فاعلًا حولَ أنواعِ الجمالِ، ويُثبِتَ للعالمِ بأنَّ حركةَ هذا الفنِّ باتتْ مُؤطّرةً بأُطُرٍ مُنهجةٍ، تعملُ تحتَ نمطِ التحليلِ الفنّيِّ الجماليِّ، والمتعلِّقِ بعملية التلقي وبدلالات وظيفيّةٍ، ربطُت بين الأنواعِ ربطًا تصويريًّا، فيه معالجةٌ فنّيّةٌ خاصّةٌ بشخصيّةِ الكاتبِ أوّلًا، وكأنّه يُؤسِّسُ لموضوعٍ جديدٍ له خصوصيّتُه، يُعالِجُ بها القضايا بنَفَسٍ

1- السابق ص 79

جديدٍ، وتقنيات ذكيّة. ولن يكونَ هذا الوعي بمثل هذه القضايا فاعلًا إلّا بالقفزِ على الحواجزِ المألوفةِ إلى اللامألوفة؛ بتخطّي كلِّ المستحيلات إلى الممكنات.

«أن الوعي النّقدي والأدبي بعملية التلقي وصوره، كان له تجلياته وحضوره في كتابات نقاد وبلاغيي العرب، على الرّغم من بساطة الطرح وغياب رؤية واضحة بإمكانها استيعاب فلسفة نظرية وجمالية مكتملة العناصر والأركانّ، غير أن هذا لا يمنع من اعتبار موضوع التلقي مشكلة توجد حيثما يوجد الأدب، بحيث من الصعب تصوّر انصراف الدراسات، كما قد يعسر من جانب آخر.

سَراية280

«قَد يَأْتِي يَوْم تمْشِي عَلَى القَمَرِ، وَتنَامُ فِي المرِّيخِ، وَتأكُلُ فِي الزُّهْرَةِ، وَلَكِنْ يَبْقَى مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ أَرْضًا، وَمَا فَوْقَ رَأْسِكَ سَمَاء[1].

هُنا تَتَبَلْوَرُ هُوِيَّةُ الكَاتِبِ وَتتَّضِحُ زَوَايَاهَا بِهَدَفِ اسْتِثْمَارِهَا فِي الجَوَانِبِ الإِنْسَانِيَّةِ؛ فَهُوَ يَكَادُ يَجْمَعُ فِي هَذِهِ السَّرَايَةِ العَالِيَةِ المُسْتَوَى بَيْنَ الحَرَكَةِ الفِكْرِيَّةِ وَالحَرَكَةِ الأَخْلَاقِيَّةِ، بَيْنَ الوَعْيِ الخِطَابِيِّ وَالحِوَارِ الجَمَالِيِّ، بَيْنَ المُمَاثَلَاتِ وَالمُفَارَقَاتِ، «نبه سوسير إلى إن البنية اللغوية برمتها تؤول إلى مركب المماثلات المفارقات وهذه القاعدة من التماثل والمفارقة تحظى في الشعر بطبع أكثر عمومية[2].

بَيْنَ المُعَادِلِ المَوْضُوعِيِّ وَالمُعَادِلِ التَّأْصِيلِيِّ، لِلوُصُولِ فِي النِّهَايَةِ إِلَى المَعْنَى المُرَادِ: وَهُوَ أَنَّكَ مَهْمَا وَصَلْتَ إِلَى القِمَمِ، إِلَّا أَنَّكَ سَتَظَلُّ مُتَعَلِّقًا بِالأَرْضِ، مَشْدُودًا إِلَى السَّمَاءِ بِنِيَاطِ العَقْلِ وَالوِجْدَانِ فِي آنٍ وَاحِدٍ. وَسَوْفَ نَبْقَى قَادِرِينَ عَلَى تَهْشِيمِ الصُّورَةِ النَّمَطِيَّةِ المَقِيتَةِ الَّتِي تَجْعَلُنَا نَتَطَلَّعُ إِلَى العَالَمِ مِنْ أَطْرَافِ عُيُونِنَا، وَكَأَنَّنَا نَسِينَا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ:

«وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا» (37) سُورَةُ الإِسْرَاءِ.

سَراية 292

«هُنَاكَ مَنْ قَرَأَ جَرِيدَةً وَظَنَّ أَنَّهَ مَدْرَسَةٌ، وَهُنَاكَ مَنْ قَرَأَ كِتَابًا وَظَنَّ أَنَّهُ جَامِعَةٌ، وَهُنَاكَ مَنْ حَصَدَ الشَّهَادَاتِ وَمَا زَادَهُ العِلْمُ إِلَّا حَجْمَ جَهْلِهِ[3] .

حُضُورٌ إِبْدَاعِيٌّ مُمَيَّزٌ يُبْرِزُ الفِكْرَ وَيَرْسُمُ مُفَارَقَاتٍ بَيْنَ أُمُورٍ تسْتَنْطِقُ جَدَلِيَّةَ الوَعْيِ الَّذِي يُؤَسِّسُ لِتَضَارِيسِ جُغْرَافِيَةِ المَعْرِفَةِ المُتَنَاهِيَةِ مَعَ هَسْهَسَةِ اللُّغَةِ، الَّتِي لَا تَرْفَعُ

1- السابق ص 79

2- يوري لتومان-تحليل النص الشعري- بنية القصيدة -ترجمة محمد فتوح أحمد من منشورات دار المعارف ص 58

3- السابق ص81

المَرْءَ بِمَا يَمْتَلِكُ مِنْ شَهَادَاتٍ وَدِرَاسَاتٍ إِلَّا فِي حُدُودٍ وَبِمَقَايِيسَ مَدْرُوسَةٍ.

وَهَذِهِ التَّضَارِيسُ لَا تَنْجَحُ فِي رَفْعَةِ المَرْءِ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ رغم أهميتها دُونَ العَوْدَةِ إِلَى تَرْمِيمِ الصُّورَةِ، وَإِعَادَةِ تَرْكِيبِهَا بِشَكْلٍ دَقِيقٍ، مَعَ التَّمَسُّكِ بِالزَّوَايَا المَفْقُودَةِ، وَإِبْعَادِهَا عَنِ الشَّظَايَا المُتَنَاثِرَةِ التي تقيس الأمور بالمظاهر فقط.

وَلْنَنْظُرْ إِلَى العَالَمِ مِنْ حَوْلِنَا نَحْنُ المُثَقَّفُونَ بِالذَّاتِ، نَظْرَةَ احْتِرَامٍ وَتَقْدِيرٍ لأنفسنا أولا وللآخرين ثانيا، ونجْعَلُ مِثْلَ هَذِهِ الأَوْسِمَةِ وَالشَّهَادَاتِ تَلِيقُ بِنَا وَبِتَصَرُّفَاتِنَا. وَمِنْ هُنَا نَسْتَطِيعُ الوُصُولَ إِلَى التَّقْيِيمِ الحَقِيقِيِّ، قَبْلَ أَنْ نَقَعَ ضَحِيَّةَ الجَهْلِ رَغْمَ كُلِّ هَذِهِ الأَوْسِمَةِ وَالشَّهَادَاتِ التَّقْدِيرِيَّةِ المُحَاطَةِ بِنَا.

وَلَا يَغِيبُ عَنْ أَذْهَانِنَا أَنَّنَا اليَوْمَ مُحَاطُونَ بِشَبَكَاتٍ مَعْلُومَاتِيَّةٍ مُتَشَعِّبَةِ المَدَارِكِ، وَلَيْسَ لَهَا حُدُودٌ، وَنَحْنُ نَقْتَرِبُ مِنْ عَصْرٍ جَدِيدٍ سَيْطَرَتْ فِيهِ هذه الشَّبَكَةُ ا بِشَكْلٍ قَدْ يُغَطِّي أَحْيَانًا عَلَى الكِتَابِ المَطْبُوعِ!

أَقُولُ: إِنَّ ظُهُورَ العُلُومِ بِأَشْكَالِهَا المُخْتَلِفَةِ، وَفِي أَزْمَانِهَا أَيْضًا المُتَبَايِنَةِ، قَدْ خَلَقَ نَهْضَةً جَدِيدَةً، وَمَهَّدَ لِعَهْدٍ جَدِيدٍ، مُدَعَّمٍ بِالهُوِيَّةِ الجَدِيدَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً سَابِقًا، وَالَّتِي عَلَى أَثَرِهَا – سَابِقًا وَحَالِيًّا – تَفَاعَلْنَا مَعَ الكُتُبِ المَطْبُوعَةِ، وَوَاكَبْنَا تَأْثِيرَ تِلْكَ المَطْبُوعَاتِ عَلَى الحَرَكَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالحَضَارِيَّةِ بِأَبْعَادِهَا المُخْتَلِفَةِ، وَحَقَّقَتْ فِعْلًا نتائج إيجابية ملموسة.

سراية 639

«القمرُ عن قربٍ، وهو دائرةٌ مشوّهةُ الاستدارةِ، كَبعضِ مَن نُحبُّ، عند الاقترابِ منهم، نجدُهم صُورًا مشوّهةَ الملامحِ، زائفةَ الألوانِ، وهكذا يكونُ القياسُ: مِن بعدٍ أحيانًا سيّدُ الأحكامِ[1].

لا شكَّ أنَّ ترسيمَ هذهِ الصورةِ المتحوِّلةِ عنِ الصورةِ المجازيةِ البارزةِ في ذاكَ التشبيهِ اللامعِ بينَ القمرِ بشكلهِ القريبِ وليسَ البعيدِ، لأنَّ البعيدَ يُعطينا جمالًا، وإضاءةً، واستدارةً طالما تغنَّتْ به العربُ في أشعارِهم، ولكنَّه القريبَ، لأنَّهُ يكشفُ عن تضاريسِهِ المتعرّجةِ بوضوحٍ، فيُصبحُ حينئذٍ شكلًا عاديًّا جدًّا، وبينَهُ وبينَ الصديقِ الّذي تَحسبُهُ صديقًا مُحبًّا، قرابة شديدة، ولكن في حقيقةِ الأمرِ هو زائفُ المشاعرِ.» العملية الإبداعية عمليه سيكولوجيه تتم داخل الإنسان ويمتزج فيها وعيه بذاته»[2]

لقد برَعَ الكاتبُ في رسم هذهِ العلاقةِ بينَهُما بشكلٍ يَخترقُ كلَّ العوالمِ، دونَ خَلخَلةِ البُنى التقليديةِ، لأنَّ مثلَ هذهِ الصورةِ التشبيهيّةِ تُزاوجُ بينَ المعنى

1- السابق ص171

2- أيمن إبراهيم معروف-إشراف يمنى العيد -النقد الأدبي في البلاغة العربية الى المناهج الحديثة -- من منشورات الشارقة ص12

ومعنى المعنى، طبقًا لمستوى الخطابِ الإبداعيِّ، عبرَ أدبيّاتِ الخطابِ الفنيِّ، وبينَ الجدلِ والمساءلةِ الّتي تتغلغلُ في بُنيةِ النسيجِ المجازيِّ، لأنَّ الحقيقةَ في التصويرِ، رغمَ أهميتِها، لن تُعبّرَ عن جماليةِ المقصودِ كالتصويرِ الفنيِّ، وهذا الخروجُ عن المألوفِ أو «الانزياح» أو «العدول» كما أطلقَهُ ابنُ الأثيرِ في كتابِهِ المثل السائر، هو من قرائنِ الجمالياتِ الّتي لا نستطيعُ الاستغناءَ عنها في الكتابة الأدبية، وقد أشارَ إلى ذلك أيضًا البلاغيُّ النّاقدُ القديمُ عبدُ القاهرِ الجرجاني إلى أن مثلُ هذا العدولِ باستخدام المجازاتِ بكلِّ أنواعِها، بات يُؤسّسُ لعوالمَ جديدةٍ، تعني المُثاقفةَ في ثوبٍ جديدٍ أنيقٍ، يُدعِّمُ المعالمَ الإبداعيةَ، والطاقاتِ الدلاليّةَ، والمركزيّةَ الخاصّةَ بالكاتبِ، الذي يستقي معلوماته من منابع ثقافيه متعددة مصحوبةً بذائقتهِ الجماليةِ والفكريةِ، كما تُضيفُ للكلامِ بُعدًا بَراجماتيًّا مُنعشًا، واضعًا في اعتبارِهِ محاورَ عدّةً، لا بدَّ لهُ من تطبيقِها، والتأطيرِ لها أثناءَ عمليةِ تشكيلِ الصورةِ. «يرى رولان بارت ان النص نسيج من الاقتباسات تنحدر من منابع ثقافيه متعددة ويرى ان النص يتألف من كتابات متعددة تتحاور وتتحاكى وتتعارض[1].

سراية 576

«الزمنُ يُعطيكَ وقتًا ويَستردّهُ في نفسِ الوقتِ، والثانيةُ الّتي تَصرفُها لا يُعوّضُها مهما فعلتَ، لا ينتظرُ أحدًا، ولا يحترمُ أحدًا. وأنتَ مُلزوَمٌ باحترامِ مواعيدِه إذا أعطاكَ وقتًا[2].

هذهِ السرايا الّتي تُركّزُ على قيمةِ الوقتِ تُذكّرُني بصحيفةِ بشرِ بنِ المعتمرِ، الّذي بدأَ صحيفتَهُ في القرنِ الثاني للهجرةِ، والمُدرَجةِ في كتابِ الجاحظِ البيان والتبيين، بقولهِ:

«خُذ من نفسِكَ ساعةَ نشاطِكَ وفراغِ بالكَ، وإجابتِها إيّاكَ، فإنَّ قليلَ تلكَ الساعةِ أكرمُ جوهرًا، وأشرفُ حسبًا، وأحسنُ في الأسماعِ، وأحلى في الصدورِ، وأسلمُ من فاحشِ الخطأِ، وأجلبُ لكلِّ عينٍ وغرّةٍ، من لفظٍ شريفٍ، ومعنى بديعٍ.

واعلم أنَّ ذلكَ أجدى عليكَ ممّا يُعطيكَ يومُكَ الأطولُ بالكَدِّ، والمُطاولةِ، والمُجَاهدةِ، وبالتّكلفِ، والمُعاودةِ، ومهما أخطأكَ لم يُخطئكَ أن يكونَ مقبولًا قصدًا، وخفيفًا على اللّسانِ، سهلًا، وكما خرجَ من ينبوعِهِ، ونجمَ من معدنِهِ»[3].

هنا تَبرزُ قيمةُ الزمنِ، وصعوبةُ استردادِه، كما يُشيرُ إليها الكاتبُ بإتقانٍ،

1- أيمن إبراهيم معروف-إشراف يمنى العيد -النقد الأدبي في البلاغة العربية الى المناهج الحديثة -- من منشورات الشارقة ص12

2- السابق ص 154

3- الجاحظ -أبو عثمان عمرو بن بحر -- البيان والتبيين- دار الفكر للجميع -1968ج1 ص 94

ونُؤكّدُ هنا على ما أسماهُ بشرُ بنُ المعتمرِ في صحيفتِه منذُ آلافِ السنين بساعة التجلّي»، وما تَحملهُ هذهِ الساعةُ من إلهامٍ فكريٍّ مُنتِجٍ، تلكَ الساعةُ الّتي تتواشجُ فيها المعاني، والألفاظ، والمضامين، لأنَّ صاحبَها احترمَ الزمنَ والوقتَ، والتي قد تَعجزُ عن استيفائِها في سنينَ طوالٍ، وأنتَ تبحثُ عن إحرازِ المنفعةِ.

ومن هذا المُنطلقِ، أشارَ الكاتبُ لتلكَ الآليةِ الّتي تحتاجُ من المتلقّي قراءةً مُتأنّيةً لما بينَ سطورِها، بتَمعُّنٍ ووعيٍ، كي تتّضحَ لديهِ الرؤيةُ، لكن دونَ نسيانِ دقّاتِ ساعةِ الوقتِ، مع مُراعاةِ الإتقانِ، والانسجامِ، والرّواقِ الجماليّ والفكريّ، الّذي سوف يُساهمُ في فتحِ مُنجَزِ المُعطياتِ بنجاحٍ والساعة التي تذهب لن تعود ثانية.

الخاتمة

أختِمُ هذا النقد المُتواضعَ، رغمَ رغبتي الشديدةِ في تناولِ السّرايات كاملة؛ خاصة وأنها لم تَأتِ اعتباطًا، بل كانت نتيجة تفكيرٍ عميقٍ، ووعيٍ، وإدراكٍ، وثقافةٍ لا محدودةٍ، إلّا أنّني آثرتُ أن أختارَ بعضًا منها.

حيثُ تَبرزُ لدينا كقُرّاءٍ من خلالِ تلكَ السّرايات عوالمُ جديدةٌ، لها أثرمحرك وقوة انفعالية وكأنّها معالمُ الإبداعِ الدلاليّةِ المُغيّبةِ تحتَ رُكامِ التمويهِ الغرائبيِّ؛ لخلقِ نوعٍ من التوازي الدّلاليِّ بينَ العناصرِ الحُضوريّةِ والغيابيّةِ، من خلالِ تنوّعٍ واختلافٍ مقاصدِ تلكَ الخواطرِ والحِكمِ.

والكاتبُ الأديبُ المثقّفُ عيسى هجرس، في هذا المَنحى، باتَ وبشكلٍ عفويٍّ غيرِ مُتكلفٍ، يُؤسّسُ لفلسفةٍ ذاتِ سِمتٍ عريقٍ، لهُ قيمةٌ مُحاطةٌ بثوابتَ نَسقيّةٍ مُتداخلةٍ مع دائرةِ الخطابِ الجماليِّ التي تعودانها من هذا المؤلف، والّتي يعيها جيّدًا جمهورُ المتخصصينَ والمهتمينَ بتلكَ الهواجسِ. وقراءتي المتواضعةُ للكتابِ كاملًا، وتَمَعّني جيّدًا، كعادتي في الغوصِ في عوالم تلكَ الخواطرِ، كشفَ لي إنَّ الكاتبَ مُتمكّنٌ من إدارةِ حواراتٍ فكريّةٍ ونفسيّةٍ مع عدّةِ أطرافٍ ملموسةٍ؛ لمحاولةِ تشريحِها، وبثِّ الحياةِ في ثناياها، لأنَّها تعاملتْ مع تلكَ الخواطرِ بنفسٍ قويٍّ، وفاعليّةٍ ثقافيّةٍ، وأهدافٍ نموذجيّةٍ، دونَ ضياعِ الهدفِ الأساسيِّ، وهو إيصالُ تلكَ الحِكمِ، والكلماتِ، والمضامينِ، والأشعارِ للناسِ. إنَّهُ قد تَبَنَّى مَوقِفًا فِكْرِيًّا، رُبَّمَا يَكُونُ غَرِيبًا وَمُخْتَلِفًا، لَهُ دَلَالَتُهُ الَّتِي خَلَقَتْ بُعْدًا سِيمَائِيًّا، تَجَاوَزَ بِهِ الْكَاتِبُ الحُلُولَ التَّقْلِيدِيَّةَ إِلَى حُلُولٍ أُخْرَى، لَهَا رَصْدٌ تَصَاعُدِيٌّ، وَمَنْظُورٌ فِكْرِيٌّ وَفَلْسَفِيٌّ، يَتَحَرَّكُ عَبْرَ أَرْضِيَّةٍ ثَابِتَةٍ، لِأَنَّهَا تَبْحَثُ فِي النِّهَايَةِ عَنْ سُبُلٍ لِمُوَاجَهَةِ التَّحَدِّي مَعَ النَّفْسِ، وَكَانَ النَّجَاحُ والتميز مكللا بالنجاح لان المؤلف اعتمد أسلوب

الإيجاز في سراياته فبلغ مراده وحقق أهدافه . أبلغ الكلام ما حسن إيجازه، وقل مجازه، وكثر إعجازه[1].

المصادر والمراجع:

1. أبو الهلال العسكري. (1989). كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر (ضبط: مفيد قميحة، ط2). دار الكتب العلمية.
2. ابن رشيق القيرواني. (1934). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ج1. دار الجيل.
3. أيمن إبراهيم معروف. (د.ت). النقد الأدبي في البلاغة العربية إلى المناهج الحديثة (بإشراف: يمنى العيد). منشورات الشارقة.
4. بدوي، ع. (1987). دراسات في النص الأدبي: عصر الإسلام وبني أمية (ط1). منشورات ذات السلاسل.
5. الجاحظ، أ. ع. ب. (1968). البيان والتبيين (ج1، ص94). دار الفكر للجميع.
6. السكاكي، أ. ي. (1983). مفتاح العلوم (تعليق: نعيم زرزور). دار الكتب العلمية.
7. الهاشمي، أ. (1999). جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ضبط: يوسف الصميلي). المكتبة العصرية.
8. الغذامي، ع. (1992). ثقافة الأسئلة: مقالات في النقد والنظرية. كتاب النادي الأدبي الثقافي.
9. المسدي، ع. س. (د.ت). الأسلوب والأسلوبية (ط3). الدار العربية للكتاب.
10. المرزوقي، ح. (1983). النقد والدراسة الأدبية (ط1). دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
11. العمري، م. (1999). البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها. منشورات أفريقيا الشرق.
12. فضل، ص. (1988). علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته (ط3). دار البلاد للطباعة والنشر.
13. لتومان، ي. (د.ت). تحليل النص الشعري: بنية القصيدة (ترجمة: محمد فتوح أحمد). منشورات دار الشارقة
14. هجرس، ع. (2022). السّرايات (ط1). فراديس للنشر والتوزيع.
15. يمنى العيد. (2008). في القول الشعري: الشعرية والمرجعية – الحداثة والقناع، دار الفارابي للنشر والتوزيع.
16. هاشمي، ط. (2022). مقاربة سيميائية. *مجلة السوسيولسانيات وتحليل الخطاب*.

1- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده-تحقيق محي الدين عبد الحميد-دار الجيل-بيروت لبنان- ج-1ص 246